

مشكلة اللغة في الأدب العربي المعاصر

تمهيد :

بين العامة الذين لا يفكرون على استيعاب قواعد الفصحى .
وبمرور الزمن ويجدد الحياة وتعاور الإجناس والول ، اكتسبت
لغة العامة حيوية ودلالات وعبارات لا تتوفر في الفصحى التي انطوت
على مفرداتها وخصائصها التي عرمت بها في فترة محددة لتجاوزها .
وهكذا نشأت الأزواجية اللغوية التي نعاني منها لفتنا
المعاصرة ، فلا الفصحى تنازل عن شيء من قواعدها القديمة لنجاري
التطور السريع في العصر الحديث ولا العامية تفوق على الرفي لتصبح
أداة للتعبير عن شتى شؤون الحياة .

ونحن العرب لا نستطيع أن نتخلى عن الفصحى ولا أن نتجنب
العامية ولا أن نتجاهل تطور الأمم واللغات من حولنا . فالفصحى
رغم فواعدها المعقدة ومفرداتها القديمة تحمل تراث امتنا الفكري
والحضاري ، وتجاهلها أو التنكر لها يعني التخلي عن خير ما
أبدعته امتنا في ميادين العلم والأدب والمعرفة . والعامية توابك
حياتنا الحديثة وأمور معيشتنا ولكنها لا تملك أمانة التي اكتسبتها
الفصحى عبر تاريخها الحضاري الطويل .

هذه هي مشكلة اللغة أو مشكلتنا مع اللغة في العلوم والأدب ،
الفصحى القديمة بجهودها وعزلتها لا نلتم نظورنا العكسري
والحضاري في العصر الحديث . والعامية لا تملك المرونة الكافية
لحمل أعباء العلم والأدب والمعرفة المتسعة في العصر الحديث .

فهل يمكن التوفيق بينهما لإيجاد لغة موحدة يتحدث بها
العرب ويكتبون بها في آن واحد ؟ هل يمكن خلق لغة موحدة لها
حيوية العامية وفرة الفصحى ومرونتها ؟ أن هذا الهدف أو المطلب
يتوقف على تخليتنا عن بعض العقبات التي تحول دون انطلاق الفصحى ،
وعليه أيضاً يتوقف بدء انطلاقنا الفكري والحضاري في العصر
الحديث ، لأن اللغة عامل حاسم في تطور الأمم ، وهي الأداة
الوحيدة التي تعبر بها الأمة عن مكنون أفكارها ومشاعرها .

مشكلة الفصحى :

والمشكلة اللغوية التي تواجهنا لا تخص العامية ولا تتعلق بها ،
إنها مشكلة الفصحى بعزلتها وجمودها وملازمتها لقواعد لا تتطور
ومفردات لا تتبدل . أن المشرمين والمفنيين من علماء اللغة اشتروا
للفصحى شروطاً واعدوا لها قواعد ، حالت بينها وبين التطور حتى
أضحت رهينة قواعدهم ، حبيسة شروطهم .

فمن شروط الفصحى العتيدة وشرايعها القاسية التزام الأعراب ،
الأعراب لم يكن ملتزماً عند جميع العرب ، ولا سائداً في كل قبيلة ،

اللغة في كل عصر وعاء العلم والأدب والمعرفة بشتى فروعها .
فالناس يتفاهمون باللغة في حياتهم اليومية ، ويتوارثون العلوم
والفلسفات والتجارب الإنسانية بواسطة اللغة ، ويعبرون عن مشاعر
السخط والرضى والمحبة والكراهية وشتى الأحاسيس باللغة أيضاً .
ولا بد أن تكون اللغة قادرة على ذلك كله ، مواكبة لمسيرة الحياة والفكر
والمشاعر الإنسانية وحين تفقد اللغة قدرتها على مسايرة الحياة فإنها
زائلة لا محالة .

وعصرنا الحديث هو عصر التطور السريع في شتى المجالات ،
فالعلوم والأدب والأفكار والتقاليد .. تتجدد يوماً بعد يوم . حتى
القوانين العلمية والمسلمات البديهية يصيبها شيء قليل أو كثير
من التعديل والتحويل . واللغة أيضاً تتطور كل عام في المجتمعات
الرافية لتواكب حاجة الإنسان المعاصر للتعبير عن شتى حياته الفكرية
والعلمية والفنية . وما من لغة في العصر الحديث إلا أصابها شيء
قليل أو كثير من التطور ، حتى بدت الشقة متسعة بينها وبين أصولها
الأولى أحياناً .

ولفتنا ليست شاذة عن لغات العالم ، لقد طرا عليها ما طرا
على اللغات في العصر الحديث من تجديد وتطور ، فكثرت لهجاتها
وانحرفت دلالات الكثير من مفرداتها ، وتسربت إليها الفاظ وصيغ
وأساليب لا عهد لها بها ، اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة ، ودرجة
العلوم والأدب أليها ، واحتكاكها ببعض اللغات الحية كالانجليزية
والفرنسية .

غير أن التطور لا يتم بالسرعة التي تقتضيها احتياجات الأمة
العربية في العصر الحديث ، فقيود الفصحى وقوانينها لا يمكن تعديلها
أو تجاوزها بسهولة لأن القدماء اعتمدوا خصائص الفصحى
بمفرداتها وصيغها وأصواتها وأعرابها ووقفوا بها عند فترة محددة
وحرموا بعدها المساس بتلك المواصفات التي أقرها والتشريعات
التي استوفا .

لكن مسيرة الحياة لا تعرف التوقف ، وتطور اللغات لا يعترف
بالجمود والتحجر وكان لغات العالم تطورت من التعقيد إلى السهولة ،
ومن الغموض إلى الوضوح ومن الخشونة إلى الرقة ، كذلك تطورت
العربية في العصر الحديث فنشأت لغة الكتابة الحديثة التي
تجاوزت شروط « الفصحى » ، من المفردات ، ونشأت اللغة العامية
بمفرداتها الحديثة في مختلف الأنظار العربية ، متجاوزة حدود
« الفصحى » وقواعد الأعراب أيضاً ، فكانت ضرورة حتمية للتفاهم

وقواعده لم تكن مبسطة ولا دقيقة على النحو الذي فصله النحاة ، لقد وجدت بعض مظاهر الأعراب ، فعممها النحاة على جميع كلام العرب ، ففاسوا حيناً ، وابتكروا من عندهم حيناً آخر ليصلوا إلى قواعد مطردة مبسطة (١) شهروها في أوجه الناس جميعاً ، والزموها بها الفصحاء والشعراء والخطباء والقراء .

ويرى د . إبراهيم السامرائي أن الأعراب تفيل لا بحمله السليقة العربية ، ومن ثم فهو يرجع وجود لغة معربة وأخرى غير معربة يستعملها الناس دون أن يلزموا أنفسهم بعناء ضوابط الأعراب (٢) .

اما د . إبراهيم أنيس فيبدي تشككه في شيوع ظاهرة الأعراب ، ويرى أن التمسك لم يكن أقل أهمية أو فصاحة أو شيوعاً من ظاهرة الأعراب . وانحق أن كتب النحو والصرف والتفسير والقراءات مليئة بالشواهد التي تدل دلالة فاضحة على اضطراب قواعد النحو وعدم اطرادها ومن تلك الشواهد ما كان ساكناً في موضع أوصل أو الحركة ، فتأول على أنه تخفيف أو وصل بنية الوقف (٣) .

هذا بالإضافة إلى وجود اللحن في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي وتناقل الأخبار بوروده وشيوعه حتى عند بعض الفصحاء وفحول الشعراء والعلماء ..

وليس الدلالة الأعرابية سوى دلالة متواضعة إذا فيست بالدلالات الهامة الكثيرة في اللغة . ولا يرى د . إبراهيم أنيس أية دلالة معنوية لحركات الأعراب ، فهي ليست سوى أصوات مفتضيهما ضرورة أنطق بالساكن ، ويحدد هذه الحركة أو تلك « طبيعته الحرف المراد تحريكه ، أو انسجام الحركة مع ما يجاورها من حركات (٤) » .

ومعظم اللغات الحية تحدد الدلالة الأعرابية من خلال موضع الكلمة في الجملة دون اللجوء إلى حركات إضافية تؤكد موقعا الأعرابي .

والأعراب بشكله القديم لا يزال عقبه كبرى تحول دون انطلاق الفصحى ، ولا تزال قواعده تعرفل تكبير العالم والكاتب والخطيب والمتحدث ، لأنها تفرض عليهم التفكير في عشرات العال والحركات والسكنات وهم يستجمعون أفكارهم لشرح إحدى النظريات العلمية أو يسطر إحدى القضايا الإنسانية . وعلى كل حال ففضية الأعراب لم تنته فصولاً في لغتنا المعاصرة . فجواهر الأمة تستقل الأعسراب وتجنبه إلى التمسك أو العامية ، لكنه متشبه بمواقعه في لغة الكتابة ، ويفرض وجوده في المدارس والجامعات والمجاميع اللغوية ، وتخصص لحفظه وتلفينه الساعات الطوال .. دون جدوى .

ولم تستطع اللغة الفصحى المعتمدة ان لبي الحاجات الضرورية الملحة للامة العربية في ميادين الفكر والعلم والادب ، فافتحمت عشرات الالفاظ لغتنا الكتابية ولهجاتنا العامية ، ووضحت جزءاً لا يتجزأ من لغتنا ولهجاتنا ، ولكن دون ان تعترف بهة فواميسنا التقليدية ، لان علماء اللغة اطلقوا باب الوضع ، وانكروا وجود الموند ، وبيدوا حق التعريب ، وخصموا حكم العيساس .

وقد حسمت هذه القضية لصالح لغتنا المعاصرة ، ودخلت الالفاظ الموضوعية والعربية والمقنيسة والمولدة إلى حرم اللغة الفصحى ، واصبحت - رغم القيود القديمة - جزءاً منها ، لا غنى لنا عنه ، لان المفردات القديمة محدودة ، بينما الافراض تنجدد ، والمعاني تتولد ، والحضارة تأتي كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالب كل حين بمصطلح .

وكانت العامية المعاصرة :

ولئن ترفع القماء عن لغة العامة ، وحرموا على الموند اقتحام حرم الفصحى ، فان الوضع اختلف نماساً في العصر الحديث ، اذ لا فرق عند جمهور اللغويين المحدثين بين لغة وأخرى إلا في قدرتها على الاداء ودفنها في التعبير ، وتلبيتها لحاجات الامة الفكرية والوجدانية واليومية ، والعامية اخف على اللسان وايسر للفكر من الفصحى التقليدية ، لانها بتخل من قواعد الأعراب ولان مفرداتها وعباراتها متداولة بين الناس يومياً ، بعكس لغة القواميس التي لا يتداولها الناس ولا يفهمونها .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ٨ - ١١٤ - الوضع اللغوي - احمد .

حسين الزيات .

اما د . إبراهيم أنيس فيبدي تشككه في شيوع ظاهرة الأعراب ، ويرى أن التمسك لم يكن أقل أهمية أو فصاحة أو شيوعاً من ظاهرة الأعراب . وانحق أن كتب النحو والصرف والتفسير والقراءات مليئة بالشواهد التي تدل دلالة فاضحة على اضطراب قواعد النحو وعدم اطرادها ومن تلك الشواهد ما كان ساكناً في موضع أوصل أو الحركة ، فتأول على أنه تخفيف أو وصل بنية الوقف (٣) .

هذا بالإضافة إلى وجود اللحن في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي وتناقل الأخبار بوروده وشيوعه حتى عند بعض الفصحاء وفحول الشعراء والعلماء ..

وليس الدلالة الأعرابية سوى دلالة متواضعة إذا فيست بالدلالات الهامة الكثيرة في اللغة . ولا يرى د . إبراهيم أنيس أية دلالة معنوية لحركات الأعراب ، فهي ليست سوى أصوات مفتضيهما ضرورة أنطق بالساكن ، ويحدد هذه الحركة أو تلك « طبيعته الحرف المراد تحريكه ، أو انسجام الحركة مع ما يجاورها من حركات (٤) » .

ومعظم اللغات الحية تحدد الدلالة الأعرابية من خلال موضع الكلمة في الجملة دون اللجوء إلى حركات إضافية تؤكد موقعا الأعرابي .

والأعراب بشكله القديم لا يزال عقبه كبرى تحول دون انطلاق الفصحى ، ولا تزال قواعده تعرفل تكبير العالم والكاتب والخطيب والمتحدث ، لأنها تفرض عليهم التفكير في عشرات العال والحركات والسكنات وهم يستجمعون أفكارهم لشرح إحدى النظريات العلمية أو يسطر إحدى القضايا الإنسانية . وعلى كل حال ففضية الأعراب لم تنته فصولاً في لغتنا المعاصرة . فجواهر الأمة تستقل الأعسراب وتجنبه إلى التمسك أو العامية ، لكنه متشبه بمواقعه في لغة الكتابة ، ويفرض وجوده في المدارس والجامعات والمجاميع اللغوية ، وتخصص لحفظه وتلفينه الساعات الطوال .. دون جدوى .

ولم تستطع اللغة الفصحى المعتمدة ان لبي الحاجات الضرورية الملحة للامة العربية في ميادين الفكر والعلم والادب ، فافتحمت عشرات الالفاظ لغتنا الكتابية ولهجاتنا العامية ، ووضحت جزءاً لا يتجزأ من لغتنا ولهجاتنا ، ولكن دون ان تعترف بهة فواميسنا التقليدية ، لان علماء اللغة اطلقوا باب الوضع ، وانكروا وجود الموند ، وبيدوا حق التعريب ، وخصموا حكم العيساس .

وقد حسمت هذه القضية لصالح لغتنا المعاصرة ، ودخلت الالفاظ الموضوعية والعربية والمقنيسة والمولدة إلى حرم اللغة الفصحى ، واصبحت - رغم القيود القديمة - جزءاً منها ، لا غنى لنا عنه ، لان المفردات القديمة محدودة ، بينما الافراض تنجدد ، والمعاني تتولد ، والحضارة تأتي كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالب كل حين بمصطلح .

وكانت العامية المعاصرة :

ولئن ترفع القماء عن لغة العامة ، وحرموا على الموند اقتحام حرم الفصحى ، فان الوضع اختلف نماساً في العصر الحديث ، اذ لا فرق عند جمهور اللغويين المحدثين بين لغة وأخرى إلا في قدرتها على الاداء ودفنها في التعبير ، وتلبيتها لحاجات الامة الفكرية والوجدانية واليومية ، والعامية اخف على اللسان وايسر للفكر من الفصحى التقليدية ، لانها بتخل من قواعد الأعراب ولان مفرداتها وعباراتها متداولة بين الناس يومياً ، بعكس لغة القواميس التي لا يتداولها الناس ولا يفهمونها .

ومنذ جمعت مفردات اللغة الفصيحة واحكم ضبطها في قواميس ، وشرائع العلماء لم تسمح حتى اليوم باضافة كلمة واحدة إلى اللغة الفصحى ، ولا المساس بصيغة من صيغها أو تحويل صوت من اصواتها ،

(١) انظر : من اسرار اللغة - د . إبراهيم أنيس - ٢٠٤ .

(٢) راجع : فقه اللغة المقارن - د . إبراهيم السامرائي - ٢١ - ٢٩ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية - مقال الاستاذ محمود تيمور - ١٢٨ -

(٤) مجلة المجمع ١٠ - ٥٥ .

(٥) المعجم العربي - د . حسين نصار ٢ - ٧٥١ .

ومما رفع من شأن العامية أيضا ، وجود أنواع أدبية جديدة ، وثيقة الصلة باللغة العامية ، كالسرحية والرواية والعصاة والمسلسلات الإذاعية والأزجال الشعبية .. ففي مثل هذه الأنواع الأدبية التي تعتمد اعتمادا جزئيا أو كليا على العامية ، لا يمكن المجازفة باستخدام الفصحى دون النخس من حيوية العمل الأدبي وإبعاده ، لأن الألفاظ في الفصحى ذات دلالات قديمة ، مرتبطة بالمصور الأولى اجتماعيا أو أدبيا ، أما اللفاظ العامية فهي وثيقة الصلة بدلالات اجتماعية معاصرة ودلالات أخرى هامشية ، يثرها النبر والتنظيم والحركات والسكنات والكنايات المعارف عليها حديثا ، وغير ذلك من الدلالات المحورية والجانبية .

اللغة المشتركة :

وقد مخضت لغة الكتابة في العصر الحديث عن خصائص جميع بين حيوية العامية ووفرة الفصحى على التكيف ومرورتها في الأداء .

ولغة الكتابة الحديثة كسرت قيد (الفصحى) ، وفتحت الباب واسعا لجميع الألفاظ والمعارف والأساليب الحديثة ، كما وفقت بين الملامح العريقة الثابتة للغة الأم وما تقتضيه ضرورة الحياة من تحديث وتطور . وبذلك فضت على النزعات الإقليمية والدعائوي المفرضة التي بشرت بانقسام الفصحى وتحول لهجاتها في الاقطار العربية الى لغات مستقلة ، على غرار ما حدث للغة اللاتينية .

ولولا مرونة الفصحى التركيبية ، ودرتها على الصراع اللغوي ، وخصائصها الراقية التي اكتسبتها عبر الآلاف من سني التطور والترقي لولا ذلك لاندثرت منذ عهد بعيد ، خاصة في عهود الظلام والتخلف والتسلط الاستعماري الذي فرض ثقافته ولفنه في كثير من الاحيان .

ولئن تجاوزت اللغة المشتركة حدود (الفصحى) ، فانها افاقت عن الخصائص الممتازة في الفصحى القديمة ، تلك الخصائص التي هذبته وتمتها يد الزمن ، وصقلتها وطوعتها مدارج الحضارة .

فأصوات الفصحى وادواتها وصيغها العديدة لا تزال كما كانت منذ الف عام تقريبا ، تفي بجميع حاجات الأمة ، ولم تستطع لهجات الأمة جميعا ان تتبدع سوى عدد ضئيل من الاصوات والصيغ والادوات التي نجد لها بديلا أو أكثر في اللغة الفصحى .

ولم تدخل اللغة المشتركة اي تعديل أو تبديل على أسماء الاشارة والاستفهام والوصول والضمائر والاعداد .. وادوات العطف الشرطي والفي والتوكيد .. ولا تزال اللغة المشتركة تتمتع بمزايا النظام الاستثنائي الرائع في اللغة العربية ، فما ان يجد فعل أو اسم في ساحة اللغة العربية ، حتى يستثمر الى ابعد مدى بواسطة عشرات المباني والصيغ الاستثنائية للأسماء والأفعال .

ويكفي ان يقع القارئ أو السامع على احد افراد الاسرة الاستثنائية حتى يمكنه تقدير المعنى أو تخمينه ، لان الاصل المجرد لجميع الفروع المشتقة يظل القاسم المشترك الاعظم الذي يوحد بين الفروع أو يقرب بين معانيها الى حد بعيد ..

هذه المزايا العديدة وغيرها انتقلت الى اللغة المشتركة ، كما تمتعت بها اللهجات العامية أيضا ، ولذلك كان من السهل على أي عربي من أي قطر أن يالف أية لهجة عربية في أسابيع معدودة ، لان عبرية النظام الاسري الاستثنائي ، والاصل المجرد المشترك بين اللهجات العربية جميعا ، يجعله يفهم المراد وان اختلف نغم الالفاء بين اللهجات .

ويبدو ان اللغة المشتركة المعاصرة ، تشبه ما بوضع عليه عرب الجاهلية حين نظموا اشعارهم بلغة أدبية مشتركة ، لا يبدو فيها اثر للهجات المتباينة ، لان المفردات بشكل عام والصيغ والادوات موحدة تقريبا ، لا تتأثر حين تكتب - بالتنظيم الصوتي الذي يميز لهجة عن لهجة .

وكثير من امثال اللهجات المحلية وتبايرها وكنياتها تسلمت الى اللغة المشتركة عن طريق الكتابات الادبية والاعلامية ، ولا تحفظ اللهجات المحلية الآن الا بقول الفليل من المفردات والادوات والصيغ التي لم يقع دمجهما بعد في صلب اللغة المشتركة ، وتنبض وقت طويل حتى تحتضنها اللغة المشتركة وتشيعها ، وهذا من اهم العوامل على بعث الحياة والحيوية في لغة الكتابة المشتركة .

فاللغة المشتركة اذن كسرت طوق العزلة الذي فرضه اللقويون على اللغة الفصحى حين اغلقوا باب الوضع ، فكل كلمة ينطقها العرب في العصر الحديث تلام مزاجهم والسنتهم ، وتخدم افكارهم أو مشاعرهم تصبح لفظة مشرفا بها في القاموس اتحي للغة المشتركة .

ولم يبق امام اللغة المشتركة من عقبة سوى عقدة الاعراب التي ينهرب منها جمهور الناطقين فيلجئون الى اتسكين تارة والعامية تارة أخرى . وجمهور الكتاب والمثقفين يحكمون تسليفة اللقوية اكثر مما يحفظون من قواعد النحو . ومع ذلك فهم لا يخطئون الا بهفدار ما نجد من شواذ في شواهد النحو .

لغة الادب :

ميزنا فيما سبق بين لغات ثلاث : الفصحى القديمة ، واللغة المشتركة الحديثة والعامية ، وبيننا ان وشائج القربى تجمع ما بين اللغات الثلاث ، وان عرى اللقاء لم تنفصم بين اللغات الثلاث ، فبينها من اوجه التشابه اصعاف ما بينها من اوجه الاختلاف .

ولغة الادب المعاصر تعتمد اساسا على اللغة المشتركة المعاصرة ، ولكنها لا تفتح صلاتها بالعامية والفصحى القديمة . وحنى عهد قريب - اعني الى عهد شوقي وحافظ والرافعي واليازجي - كانت لغة الادب عامة والشعر خاصة تعتمد على لغة القواميس القديمة ولغة الادب القديم . انطلاقا من المبدأ الخطيء الذي يحصر لغة العرب وادب العرب في بوادي الاعراب - اما اليوم فلم يعد احد من الادباء والكتاب يفاخر بالفريب أو الفصحى القديم لان مهمة اللغة في الادب حددها النقد الحديث كوسيلة لا غاية في ذاتها ، ولان الانواع الادبية الحديثة تؤثر لغة الحياة على لغة القواميس .

والنقد القديم هام على اساس من محاباة الادب القديم ، فلفته هي المثلى واساليبه وفيه هي النموذج المحتذى ، ولذلك فجعل ادبنا القديم يدور في فلك الشعر الجاهلي من حيث اللغة والموضوعات والشبيلات والمجازات ..

والتقليديون المحذون ارادوا إعادة الكرة ، بتقليد لغة الادب القديم وموضوعاته واخيلته واساليبه ، ولكن القاميس الادبية الحديثة وضعت مواصفات للادب ولفته واساليبه تختلف عن تلك التي تواضع عليها القدماء . لقد اختلفت البيئة والثقافات والاذواق ، وبعدت الثقة بين عصرنا والعصر الجاهلي ، وجدت في حياتنا المعاصرة انواع ادبية لم تكن موجودة في الادب القديم ، وخضع ادبنا لمعايير نقدية لا يعرفها النقد القديم ، فائر ذلك كله على لغة الادب المعاصر .

وعلى كل حال فلفة الادب في العصر الحديث تتجنب معجم الالفاظ الميتة ونصل اتصالا وثيقا بلغة الحياة ، لغة الكتابة والحديث لجميع الطبقات الشعبية المعاصرة ، بالإضافة الى المعجم الخاص الذي يكونه الاديب باطلاعهم وذوقه الخاص .

ولا يعني هذا ان لغة تراثنا الادبي لم بعد تجدي نغما ، وان على الاديب ان يتنكر لتراثنا اللقوي والادبي القديم ، فالاديب المعاصر لا يستند عوده ، ولا تقوى ملكانه ولا يتبلور أسلوبه وشخصيته الادبية الا اذا وثق صلته بلغة التراث وبادبنا القديم .

ولغة الادب المعاصر تنجح الى الهمس والرمز والتصوير والتعبير غير المباشر فاللهجة الخطابية ، والالفاظ الفخمة الجزلة لم تعد صالحة للغة الادب المعاصر . ان اغراض الاديب القريبة والبعيدة ، وعواطفه

المنبأية يجب ان تكون مفضاة بضباب خفيف ، لا يجيب الرؤية ، ولكنه يشير جوا من الغموض ، يضعي رونقا وجمالا على تعه الاسلوب الادبي .
يعد بها عن الابتذال والتكرار الذي الفتة الاذن .
على ان الايقال في العموض ، والنمادي في الترمز يفضيان الى ابهام يججب الغاية القريبة والبعيدة للاديب . فان تعبير المباشر سطحيه لا تليق بالاديب ، والابهام اندي يصل حد الاحاجي والالغاز ، يجمل العبارات والكلمات ثقيلة منكلفة ، لانه يجهد الفكر ، ويحرم القاريء من المتعة الذهنية والروحية التي مر بها الاديب ، ويفوت عليه فهم الغاية او الهدف الاسمي لعمله الادبي .

لغة الشعر :

لم تعد لغة الشعر اتقديم مناسبه في العصر الحديث . ولم تعد معايير الفحولة والفقامة والجزالة صالحة للغة الشعر الحديث . والاديب اصبح يملك زمام امره ، ومقدرات فكره ووجدانه ، ولسه الحرية التامة في التعبير عن حقيقته مساعره لا يمدح وهو كاره للمدح ، ولا يتزلف خوفا من البطش ، ولا يملق طمعا في النوال . لغة مثل ذلك الاديب رخيصة مزيفة مبتذلة في العصر الحديث .
ولعل فهمنا الصحيح لمهه الادب والاديب في العصر الحديث ، غير من نظرنا الى لغة الاديب ، فليست مهمة الشاعر ان يكون نابعا ذليلا للخليفة وافعا ببابه متمسحا باصا به كما كان شأنه قديما . للشاعر المعاصر حرية الشخصية وكرامته ورزفه المستقل عن اعطيات الخليفة وهباته ، فلقته ليست ذليلة خائفة خنوع نفسه لقته حرة كحرية الشخصية ، تعبر عن ذاته ومشاعره الحقيقية ، تبلغ رسالته في الوجود ، وتجاربه في الحياة ومشاكله ومشاغله الوجدانية .

ولغة الشاعر قديما متأنقة منكلفة ، لرضي ادواق اللقويين والبلاغيين الحافين ببلاد الخليفة ، فجازاتها وكناياتها واخيلتها على غرار الصور القديمة ، والفاظها تسمو وتكر في امين اللقويين كلما حافظت على المعجم الجاهلي القديم ، اما اليوم لغة الشاعر هي اللغة التي تتبع من وجدانه ويردها لسانه ، دون تزيف او زخرفة منكلفة او فصاحة معمدة . لغة الشاعر المعاصر تحمل بين طياتها دلالات الحياة المعاصرة ، باشاعاتها الحية المتجددة ، التي تطل من وراء الكلمات والعبارات وتهمس في الاسماع والقلوب .

ولغة الشعر المعاصر ليست شتاتا من المعاني والافكار والمشاعر والابيات المتفرقة التي لا تسلم الى شيء ، ولا تدل الا على خواطر مبشرة وعواطف مشتتة ، ومعاني مجزأة فمن وراء اللغة والافكار والاحاسيس والصور والموسيقى . . . خيال يجمع الشتات ، ويؤلف بين الجزئيات (٧) بعطف ما يجب حذفه . ويبقي على كل ما يلائم العمل الادبي ، ينظم العاطفة ، ويحدد الايقاع ليخلق صورة فنية متكاملة ، ذات اطار واضح ، ومضمون متكامل وغاية محددة .

ولعل الحوار الذي دار بين الشعارين الانجليزيين ، كوليردج ووردث ورث حدد المعالم الادبي للغة الشعر في العصر الحديث ، كما اثار قضايا نقدية وادبية لا زالت تثار حتى الان تتعلق بلغة الشعر وشكله ومضمونه ، وائر الفكر والعاطفة والخيال فيه ، وغير ذلك من الموضوعات الادبية النقدية .

وقد شغلت قضية اللفظ والمعنى كثيرا من كتابنا وشعرنا المدامي ، وانقسم فيها الادباء والنقاد الى فريقين : احدهما يؤيد اللفظ وتجويده ويجعل البلاغة كلها في حسن اختياره وسبكه وايقاعه . . . والاخر يؤيد جودة المعاني وتوليدها وتعميقها وتلاحمها . الخ وقد تجاوز النقد الحديث هذه القضية ، ولم يعد لها وجود في الشعر ايضا ، فاللفظ والمعنى كل لا يتجزأ في نظر كوليردج (٨) ، والكلمة

المفردة لا وجود لها في الكلام او الاسلوب فنحن لا نلتقط ولا نكتسب كلمات مفردة منفصل بعضها عن بعض ، اننا نلتقط جملا او دفعة من العبارات في النفس الواحد ، لا نتوقف حتى يكتمل المعنى الجزئي في ذهن السامع او القاريء ، ثم نصل اول الكلام باخره في جمل وفقرات عديدة متتابعة آلى ان تكتمل الفكرة ويستوي الافهام .

فالكلمة بمعناها جزء من هذا السياق اتصل المؤدي - في الادب - الى مراميه الجزئية والكلية .

ويرى اناوند الانجليزي ابركرمي اننا قد نتحدث عن معنى الكلمة او الجملة وقد نقرأ الحديث عن موسيقى الكلمة او الجملة وملاءمتها للموضوع مثلا ، ولكننا لا نعصد حينذاك سوى اتقسيم انظري فحسب ، اما عمليا فلا يمكن الفصل بين هذه الاجزاء (٩) لانها تتلاحم في عرى لا انفصام بينها .

كذلك لا يمكن اتحدث عن لغة الشعر او النثر بمعزل عن الشكل او المضمون . فاللغة والشكل والمضمون نضافر جميعا للوصول الى غاية واحدة يشارك فيها اتشكل والمضمون واللغة في وحدة لا سبيل الى الفصل بين اجزائها الانظريا .

فقد نتحدث عن لغة انصبيه مثلا ، ايقاعها وانسجام اصواتها وملاءمتها للموضوع ومطابقتها لانفعال الشاعر . . . وقد نعجب بدفة المجاز او روعه التشبيه او طرافة الكتابة غير ان ذلك كله لا يصرنا عن الغاية للقصيدة او الدراما الشعرية ، فاللغة مادة الادب او رمز يوصلنا الى غايه الادب ، وتجويدنا باللغة العربية واهتمامنا بها لا يعني انها غايتنا من الادب ، وما اللغة سوى جزء واحد فقط من اجزاء العمل الادبي ، تتضافر مع المضمون والشكل لبرز انعمل الادبي في احسن صورة .

لغة النثر الادبي :

وهذه اللغة تختلف دلالاتها وايحاءاتها عن لغة الشعر ، لان طبيعة الشعر تختلف عن طبيعة النثر ، فهو موضوعات الشعر اكثر تحديدا ، وعاطفته اشر حدة ، ومجال الخيال فيه اوسع وارحب ، والكلمات اكثر اثارا ، وموسيقاها اوضح واوقع في النفس من موسيقى النثر . وعلى العموم فاللغة والموضوع والمضمون والفكر والعاطفة . . . اكثر تحديدا وتركيزا في الشعر منها في النثر .

كذلك يختلف النثر الادبي عن نثر الاحاديث اتيوميه ، ففي مجال الادب يخضع النثر لانغاء الاديب وبوجهه الفكري والوجداني ، وهو عند (ت.س. البوت) اقرب الى الموضوعية (١٠) منه الى الذاتية والاحاديث العابرة اليوميه . لان الكاتب الادبي لا يكتب كل ما يعين على باله ، ولا يعبر عن احاسيسه بشكل تلقائي مباشر ، وانما عليه ان ينظر حتى تتضح التجربة وتستقيم الفكرة وتحدد الغاية وتاخذ شكلها الملائم . . . عندئذ يبدأ التعبير .

وكتاب الدرجة الثانية وحدهم الذين يعبرون عن تجاربهم بصيرا مباشرا ، لذلك تلمح تسببا في لغتهم وحوارهم وعاطفتهم وافكارهم ومضمون اعمالهم الادبية . ولغة هؤلاء اقرب الى لغة رجل الشارع الذي لا يضبطها ضابط فني او وجداني .

اما لغة الاديب المبدع الخلاق فيعرف كيف يوجه الالفاظ والعبارات بعفكره ووجدانه وخياله ليخلق صورة ناضجة مكتملة لتجربته الادبية .

ولعل معجم الالفاظ يكون واحدا او متقاربا في الشعر والنثر والاحاديث العابرة ولكن ذوق الاديب وثقافته وعاطفته تحيز ونوجه وتهمين ويتفاوت اسلوب الاديب من نوع الى آخر من الانواع الادبية المعاصرة ، كما يجب ان يتنوع من موقف لآخر ، من شخصية لآخرى

(٩) قواعد النقد الادبي - لاسل ابركرمي ترجمة محمد عوض محمد / ٣٩ وما بعدها .
(١٠) ما هو الادب - د . رشاد رشدي - ٧٠٥ .

(٧) في النقد الادبي - د . عبدالعزيز عتيق - ١١٩

وانظر في النقد الادبي الحديث . محمد عبدالرحمن شعيب - ١٧٩-١٩٨

(٨) كوليردج : محمد مصطفى بلوي - ٨٢ - ٩٨ .

الادب والمستقبل العربي

خطوط ... وملاح

لدينا اربع كلمات تستقطب تفكيرنا في هذه المقالة :
الادب : الشكل الفني الذي يؤدي فيه المعاني والمساير ، او
اساليب التفكير والتعبير .
العربي : تحديد الهوية القومية للادب .
المستقبل : اي مصير امة العرب .
الفاعلية الادبية : اي قدرة الكلمة على تغيير الواقع .

الفاعلية الادبية :

وبما ان الفاعلية الادبية هي الهدف المنشود ، فلا بأس من ان
نبدأ بتقصي مآنيها لان الاندفاع في تحقيقها او المبالغة في تقويمها
يؤديان الى افدح انواع الضرر بالادب وانزله على السواء . فقد ارتفع
بعيد هزيمة حزيران شعار : « الكلمة رصاصة » . واعصب ههنا

الادب والمستقبل العربي ، السنهبل اتعربي والادب ، ادب العربي
المستقبلي ، مسميات كلها بمعنى . واخشى من القلوب ان امتنحت الكلام
بالقول ان ادبنا ما لم يكن ادب المستقبل لمن يكون عربيا قط .

لا افصد بهذا معنى الخلود الادبي أو أي معنى يستشرف الابد .
افصد فقط ان الادب الحالي المكتوب باللغة العربية يجب ان يحمل في
تأياها ملاح المستقبل العربي المنشود ، اذا اراد ان يحمل هوية قومية .

الادب الذي يحمل هوية قومية هو وحده ادب المستقبل . اي
الادب المرشح لامرين :

ان يعيش بمد صاحبه ، وان يفعل فعلا يغير الواقع .
هنا يجب التوقف قليلا لتحديد مدى فاعلية الانفاظ ، تحديد
مجال عملها - مما سيحدد بالضرورة مدلولاتها .

اللغة العربية سواء اكانت في الادب او العلم او الحياة تنحصر في جمود
الفصحى العديمة عند خصائص ومواصفات حددها القدماء ، والزموا
بها جميع الناطقين بالعربية في عصرهم والعصور التالية ، وكان
اللغة لا تبدل ولا تتطور .

وما دمننا نغف بتفكيرنا اللغوي عند الحدود التي وضعها
القدماء ، فمشكلة اللغة العربية في الادب وغيره تظل قائمة ،
وننفاقم يوماً بعد يوم ، لان أي لغة في العالم تتطور بتطور الامة ،
وتواكب مسيرتها الفكرية والوجدانية واليومية . .

والامة العربية مقبلة على نهضة كبرى في جميع الميادين ، ولا بد
ان تطوع اللغة لحاجتنا العصرية ، ولا يمكن ان تظل بدوية صحراوية،
حتى ولو سلمنا بان اصولها الاولى كانت كذلك . فلفات العالم تنتقل
من خشونة البداوة الى رقة الحضارة ، ومن التعقيد الى
البساطة ، ومن القموض الى الدقة والوضوح . ولقننا هي احدى
اللفات التي ينطبق عليها ما ينطبق على جميع اللغات في العالم . ولا
خوف عليها من التطور والنماء ، بل الخوف كسل الخوف من الجمود
الؤذي الى الزوال .

بقي ان نقول ان تطور لغتنا رهين بتطور الفكر الخلاق المبدع في
امتنا ، وسوف نشعر بحاجتنا الماسة لتطورها كلما خطونا خطوة في
مدارج الرقي والحضارة والعلم والادب .
والله تسال ان يلهم امتنا التوفيق والسداد .

د . عدنان يوسف سكيك
جامعة الفاتح - كلية التربية

واللغة المفضلة في جميع المواقف والانواع الادبية هي لغة الحياة
المعاصرة دون سواها (١١) .

ولغة الكتابة المعاصرة طوعت لانواع عديدة من الادب المستحدث :
كالمسرحية والرواية والقصة . . ويستطيع الاديب ان يستخدمها دون
غضاظة في جميع اعماله الادبية فيما عدا الجانب انقائم على الحوار ،
لاننا لا نألف الحوار ولا نستضيفه الا اذا قرأناه كما تعودنا سماعه ،
اعني باللهجة العامية . وتفصيح العامية او المساس بشيء من
تركيبها يعني الاخلال بالدلالات الاجتماعية والنفسية والرمزية التي
اكتسبتها خلال تداولها اليومي بين الناس . ومن هنا
نجد كثيراً من الفتور والضعف في الحوار الذي يصطنع الفصحى
في أي عمل من الاعمال الادبية .

وكتابة الحوار بالعامية لا يباعد بين اللهجات في الوطن العربي،
بل العكس هو الصحيح ، فكتابة الحوار بالعامية في بعض الاعمال
الادبية يهدم الحواجز القائمة بين اللهجات المختلفة ، ويفدي ثرونا
اللغوية المعاصرة ، ويبرز اوجه الشبه العديدة الموجودة بين مخالف
اللهجات في الوطن العربي .

الخلاصة :

يتضح لنا من القضايا اللغوية التي عرضناها بايجاز ، ان مشكلة

(١١) من الوجة النفسية في دراسة الادب ونقده - د . محمد
خلف الله احمد - ٧٩ وما بعدها .